السطح بعيدا عن العنف الذرائعي (البراجماتي) المتضمن في حركة التحرير الفلسطينية ، وعلى الرغم من أن التنظير يتضمن داخله استعدادا لان يصبح نوعا من « الخليط الفكري العشوائي »(٤)، الا ان امكانية تقديم سلسلة من المفاهيم المنظمة من خلال تحليل نظري للفرضية الوظيفية للحركة يجعل الثورة بالتأكيد قابلة للتشريح التحليلي الضروري للتنبؤ غير المنحاز . الى ذلك تخلق النظرية طيفا عريضا من الاختيارات يصبح بها الفحص الميكروسكوبي للثورة ممكنا. وليس هناك من تناقض جوهري بين طريقة المعالجة النظرية هذه وبين الثورة الفلسطينية ذات التوجه نحو العمل ، ذلك ان كليهما خاضع للحكم التقييمي . فالواقع الذي أملى على الثورة سبب وجودها والتحام اجهزة الثورة السياسية والعسكرية ، هما بحد ذاتهما غير نظريين او في احسن الاحوال لا نظريين . بيد أن هدف الثورة ، الا وهو اقامة مجتمع ديمقراطي علماني متعدد الاديان ، هو ، بالتعريف ، مشحون أخلاقيا . فهذا الشكل من اشكال المجتمع يجب ان يبنى على ما هو خير للانسان الفلسطيني لا كذات بل كانسان . كذلك يجب ان يبنى تماسك المجتمع الجديد على صالح عام يخدم مصالح كل اعضاء ذلك المجتمع . وفي هذا المجال ، تمد الثورة الفلسطينية ، على الاقل في تصريحات قادتها ، جسرا ما بين ثقافة البرج العاجي والعمل الثوري. وتمكن هنا الاشارة بحذر الى ملاحظة مورجنثو أن ما يعطي النظرية السياسية حيويتها وقوتها هو « صلتها الخلاقة بالواقع السياسي»(٥). ونحن نشهد في الثورة الفلسطينية رفضا واضحا لافكار آبي هوفمان في « الثورة لذاتها »(٦) ولطوباوية جري روبن الضبابية في « افعله ! »(٧)، فهذه الثورة تقدم تأليفا مقنعا الى حد ما من العمل والنظرية ، ومن هنا تنشأ ضرورة التنظير .

يذكرنا البروفسور ريمون آرون في كتابه « السلام والحرب » أن « أزمنة الاضطراب تشجع التأمل »(٨). ويفترض آرون ان الاعمال العظيمة في التاريخ مثل «جمهورية» أفلاطون و«سياسيات» ارسطو و«دولة» هوبز(٩) قد ترافقت مع ازمات كبيرة ساهمت بطريق غير مباشر في انتاج البحث السياسي الخصب . كذلك شهدت أزمة « عصر الثورة » ظهور النظرية الديمقراطية عند مونتيسكيو وروسو ، ويمكن ايضا النظر الى « البيان الشيوعي » و« الاوراق الفيدرالية » (وهي سلسلة مقالات كتبها الكسندر هاملتون وجيمس ماديسون وجون جي ١٧٨٧ حول الدستور المقترح الجديد للولايات المتحدة) من منظور الازمة/ رد الفعل ، طبقا لنظرية آرون . تخدم النظرية بهذا المعنى غرضا متعدد الوجوه : « فهي تمكن من استقصاء المعلومات »(١٠) ويمكن لها ان تكون « أداة ذات فائدة للفهم ... ولاستيعاب لا المنظمات والمتسقات فحسب ، بل المصادفات واللامعقولات ايضا »(١١) وذلك من خلال التصنيف المنطقي الضروري للمسائل .

العنف والنظرية

على الرغم من أن العنف ظاهرة جديدة نسبيا في النظرية السياسية ، على الاقل فيما يتعلق بتفحصها كمجال بحث مستقل ، الا ان هذه الظاهرة قد لعبت دورا عظيما في الشؤون الانسانية . وسواء اعتبر العنف امتدادا للسياسة (كلاوزفيتز) او « مسرعا للتطور الاقتصادي»(١٢) (انجلز) ، فان جماعات وحركات عدة على امتداد العالم قد استخدمته ، واعتبرته مشروعا لانه السبيل الفعال الوحيد لاحداث تغييرات اجتماعية وسياسية واقتصادية . وما دام العنف هو سبيل العمل الرئيسي الذي تتبناه حركة المقاومة الفلسطينية ، فان من المناسب هنا ان نتفحص بعض الكتابات المعاصرة في العنف والتغير الثوري ، وذلك بالقدر الذي وسم فيه العنف والعملية العنفية التطورات السياسية الحديثة . وليس الهدف من ذلك البحث عن تبريرات للعنف بل تفحص طبيعة العملية العنفية واستخدامها واهدافها كظاهرة سياسية . تؤكد حنه آريندت أن احد أسباب عدم تطور نظرية مكتملة في العنف يعود الى أن العنف قد نظر اليه غالبا من منظور ضيق ، هو منظور التبرير(١٣). وهناك سبب جدير آخر لغياب نظرية موحدة في العنف هو أن مستخدمي العنف يكونون خلال العملية العنفية منهمكين فيها كلية ومباشرة فلا يجدون وقتا للتفكير في الطريقة العنفية(١٤).

على الرغم من تكاثر الفرضيات النظرية والتنظير في العنف ، الا أن سؤالا يجب ان يثار دوما : لماذا يستخدم العنف ؟ يتساءل بارنجتون مور «هل العنف سمة لازمة لخطوات الانسانية المترددة نحو الحرية ؟ »(١٥). لقد اعطيت على هذا السؤال